كلية الآداب والعلوم الإنسانية
مكناس

الموسم الجامعي: 2021/2020
وحدة الإبيستيمولوجيا
الفصل السادس
أستاذ الوحدة: عبد الرحيم برواكي

✓ **محاور الوحدة:**

تقديم عام، في صعوبة تعريف "الإبيستيمولوجيا".

المحور الأول: علاقة الإبيستيمولوجيا بنظرية المعرفة والفلسفة الوضعية.

المحور الثاني: الإبيستيمولوجيا وفلسفة العلوم.

✓ **المراجع المعتمدة:**

المرجع الأساسي:

Robert Blanché, *L'épistémologie*, PUF, 1972.

المرجع الثانوي:

- يمنى طريف الخولي، *فلسفة العلم في القرن العشرين*، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2014.

✓ **تقديم عام، في صعوبة تعريف الإبيستيمولوجيا:**

نراهن في هذه الوحدة **"الإبيستيمولوجيا"** أن نرصد بطريقة دقيقة وموضوعية بنية مفهوم في الفلسفة الغربية وذلك من خلال عرض بعض آراء أهم الفلاسفة والعلماء في إمكان تعريف الإبيستيمولوجيا وارتباطها الوثيق بمجالات معرفية متنوعة مثل نظرية المعرفة، الفلسفة الوضعية، فلسفة العلم وتاريخه كما سنرى، وبعد ذلك سننفتح على بعض النصوص المختارة التي عالجت

هذا المفهوم، ثم نحاول عقد مقارنات بين هذا المبحث ومباحث أخرى يصعب الانفلات من عقالها إذا أردنا تعريف الإبيستيمولوجيا.

إن مصطلح الإبيستيمولوجيا Epistémologie في الفرنسية مركب من الكلمة اليونانية Episteme وتعني العلم أو المعرفة العلمية والمقطع Logie يعني في أصله اليوناني logos نظرية أو دراسة نقدية، وبناء على هذا، فإن لفظ الإبيستيمولوجيا يعني في أصله الاشتقاقي **نظرية العلم** أو **نظرية المعرفة العلمية**.

إن لفظ الإبيستيمولوجيا لم يكن معروفا ولا مستخدما إلا في حدود مطلع القرن العشرين حيث ورد لأول مرة في ملحق معجم Larousse الذي ظهر 1906، وقد خلت المعاجم والقواميس تماما من مفهوم الإبيستيمولوجيا قبل هذا التاريخ، ويبدو أن أول من استعمل لفظ الإبيستيمولوجيا هو J.F.Ferrier في كتابه Institutes of Metaphysics الذي صدر سنة 1854 ليميز فيه بين مجالين أساسيين من مباحث الفلسفة هما: الإبيستيمولوجيا والأنطولوجيا.

في كتابه الإبيستيمولوجيا، أكد روبير بلانشي أنه إذا أردنا أن نحدد هذا المفهوم وأن نرسم حدود مجالاته لابد من نعود إلى المعجم التقني للمصطلحات الفلسفية لأندري لالاند:

« L'épistémologie n'est pas proprement l'étude des méthodes scientifiques, qui est l'objet de la méthodologie et fait partie de la logique, tandis que l'épistémologie est essentiellement l'étude critique des principes, des hypothèses et des diverses sciences… » (Robert Blanché, op. cit., p. 21.)

"تعني هذه الكلمة أي فلسفة العلوم، ولكن بمعنى أكثر دقة، فهي ليست الدراسة الخاصة لشتى المناهج العلمية، لأن موضوع هذه الدراسة هو علم مناهج البحث وهو جزء من المنطق، كما أنها ليست أيضا تأليفا أو استباقا حدسيا للقوانين العلمية

(على طريقة الفلسفة الوضعية) إنها أساسا ذلك المبحث الذي يعالج معالجة نقدية مبادئ العلوم المختلفة وفروعها ونتائجها بهدف التوصل إلى إرساء أساسها المنطقي، كما أنها تنشد تحديد قيمة هذه العلوم ودرجة موضوعيتها"

ما نستنتجه من تعريف لالاند أنه:

أولا: عرف الإبيستيمولوجيا بما ليست هي، فهي ليست علم مناهج البحث، كما أنها ليست الفلسفة الوضعية في نظرتها إلى العلم عموما.

ثانيا: في هذا التعريف حدد لالاند الإبيستيمولوجيا بما هي عليه، أي بمكوناتها، إنها بمعنى ضيق، عبارة عن فلسفة العلوم، إنها تعتمد على المنطق دون غيره في نقدها لمبادئ العلوم ونتائجها وتحديد قيمتها ودرجة موضوعيتها.

يمكن القول أن تعريف لالاند رغم وضوحه النسبي لا يمكن أن نعتمد عليه من أجل تحديد مجال الإبيستيمولوجيا تحديدا دقيقا، ولهذا لابد من ربطها بفروع العلم والفلسفة الفلسفة الوضعية، نظرية المعرفة، فلسفة العلوم، تاريخ العلوم...ورغم كثرة المؤلفات وتنوعها في ميدان الإبيستيمولوجيا إلا أن من اهتم بالكتابة فيها يرى صعوبة تعريفها تعريفا جامعا مانعا، وقد برر بليفال ذلك بالاتساع المتزايد في الهوة بين الفلسفة والعلم، الأمر الذي زاد من تردد الباحثين في محاولة تعريف الإبيستيمولوجيا. وقد بنى بليفال رأيه على ما لاحظه جورج كانكيلم من أن غالبية ما يقال في ميدان الإبيستيمولوجيا هو عبارة عن برامج دراسة وأن الحقيقية نادرة وقليلة، أما روبير بلانشي فقد ربط بين الإبيستيمولوجيا وعلم مناهج البحث كما أنه ربطها بالعلوم الإنسانية. فإذا كان الأمر كذلك هل يمكن أن نحصل على تعريف جامع مانع للإبيستيمولوجيا؟ وما علاقتها بنظرية المعرفة والفلسفة الوضعية؟ وهل يمكن ربطها كذلك بفلسفة العلم وتاريخه؟

✓ **المحور الأول: علاقة الإبيستيمولوجيا بنظرية المعرفة والفلسفة الوضعية.**

أ-علاقة الإبيستيمولوجيا بنظرية المعرفة.

ما هي علاقة الإبيستيمولوجيا بنظرية المعرفة؟ هل هي علاقة تطابق؟ أم علاقة انفصال؟ أم أنه لا توجد بينهما أي علاقة؟

اقترن مفهوم **المعرفة** Connaissance بالإبيستيمولوجيا اقترانا وثيقا، والسبب في ذلك يؤول أن الانسان لكي يحافظ على حياته ويسيطر على الطبيعة يجعلها في خدمته، كان لابد أن يسعى إلى معرفة الأشياء والكائنات والاستفادة منها في تحقيق ما ينفعه وتوسيع دائرة معارفه وهكذا وضع الأنسان نفسه مقابل الأشياء والحيوانات بوصفه ذاتا عارفة قادرا على معرفة العالم الخارجي ومعرفة ذاته في نفس الوقت، ولكن مع مرور الزمان، أصبح البحث في المعرفة يرتبط بتخصصات أخرى كالإبيستيمولوجيا كما قلنا.

انطلاقا من هذا المعطى يمكن القول أن مفهوم المعرفة يختلف عن غيره من المفاهيم فهو مفهوم مركزي بالنسبة لغيره من هذه المفاهيم، إنه بمثابة الجذر الذي تتفرع عنه هذه المفاهيم، لأن الانطلاق من تصور معين للمعرفة هو الذي يحدد طبيعة هذه المفاهيم، فمفهوم المعرفة يتميز عن غيره من المفاهيم بأنه يجمع هذه القضايا والمفاهيم في منظومة واحدة هي النسق المعرفي.

وانطلاقا من هذه الأهمية التي يتمتع بها مفهوم المعرفة يجب علينا أن نهتم به، فلو صح أن نظرنا إليه بوصفه يمثل نقطة البداية، هنا يمكن القول بأن له علاقة بعدة مفاهيم مثل مفهوم الإبيستيمولوجيا، فعلاقة المعرفة بهذا الأخير الذي يحدد خصوصيتها، صحيح أن هناك حوارا دائما بين المفهومين.

نراهن في هذا المحور الجزئي أن نرصد بطريقة دقيقة وموضوعية بنية مفهوم المعرفة في ارتباطها بالإبيستيمولوجيا، وإذا كانت مشكلة سيرورة العلم وتصنيفه تنتميان إلى تاريخية العلم فإن بنية المعرفة العلمية تطرح - إبيستيمولوجياً - مسألة

إنتاجها والعلاقة التي تقوم بين الذات والموضوع وبين العقل ومعطيات الواقع من أجل تحديد دقيق للواقعة العلمية.

فالعلاقة التي تقوم بين الذات والموضوع في المعرفة العلمية علاقة مركبة، فلا وجود لواقعة علمية تُسند إلى معطيات مباشرة فقط من دون مبادئ عقلية، كما أنه لا وجود لمبادئ عقلية من دون معطيات مباشرة.

ولما كان العلم يهدف إلى تحقيق المعرفة النظرية، فالمعرفة النظرية هي ثمرة العلاقة المركبة بين العقل والطبيعة .وإذا كانت العلاقة بين الذات والموضوع قد فهمت في المراحل المبكرة من تطور العلم على أنها حوار بين الذات والموضوع المناقض لها، فإن العلم المعاصر قد دلل على تعقيد هذه العلاقة، فالحوار بين الذات والموضوع يجري اليوم بين عقل مسلح بكل المعرفة السابقة والموضوع الذي ركّبه نشاط العالم العقلي.

ففي الفيزياء والكيمياء المعاصرتين لم تعد ظواهر العالم الخارج بوصفها معطيات مباشرة هي موضوع المعرفة العلمية، بل تلك الموضوعات المعقدة التي نشأت بفعل تركيب دقيق وعميق من قبل العالِم المسلح بتقنية عالية، من دون أن تفقد هذه الموضوعات واقعيتها.

وقد أصبحت التجربة العلمية، في ضوء ما تقدم، صورة للنشاط الاختباري والمنطقي للذات. ولم يعد موضوعها صورة طبق الأصل عن الواقع الموضوعي. إنها ثمرة شروط هي ثمرة تدخل العالِم، وإن تدخل الذات العارفة قد طرح مسألة الدور الفاعل للذات في المعرفة العلمية. فالعلم أساساً يقوم بوصف علاقات بين متغيرات. والنظريات العلمية لا تنطوي إلا على عدد محدود من المتغيرات، على النقيض من الواقع الذي يحتوي على عدد كبير منها. فالظاهرة يمكن أن تتأثر بعوامل لا حصر لها. ويقتضي وصف الظاهرة ـ علمياً ـ إزاحة جملة من الصفات السطحية غير المهمة. ووضع فرضيات علمية عما هو أساسي وغير أساسي.

ونتيجة لذلك لم تعد الواقعة العلمية مجرد ظاهرة خاصة، بل هي ثمرة تدخل نشاط فعّال لذات تتصف بالقدرة على التخيّل.

وكل كشف أو توسع في المعرفة العلمية يبدأ، بوصفه تصوراً خيالياً قبْلياً لما يمكن أن تكون عليه الحقيقة العلمية. ولا يمكن فهم عمل المخيلة إلا من حيث هو إعمال العقل أو استخدام الحواس. غير أن العالِم لا يستطيع أن يحوّل حدسه أو خياله إلى إبداع علمي من دون المثابرة العلمية، فيوحد، على نحو أصيل، الحدس والاختبار والموضوعية وسعة الأفق.

إن المعرفة هي إدراك الأشياء وتصورها، وقد ميز بتراند راسل B.Russell بين نوعين من المعرفة: **معرفة باللقاء** أو **الاتصال المباشر** Knowledge by acquaintance و**المعرفة بالوصف** Knowledge by description فالمعرفة من النوع الأول تكون بواسطة الحواس، أو الكيفيات الثانوية، أما المعرفة بالوصف فتتأسس على المعطيات الحسية لكنها تنطوي كذلك على المبادئ والتأليفات العقلية، فإذا ركبت المعطيات الحسية التي تأتني مثلا من موضوع الطاولة، ثم أطلقت هذه التأليفات الحسية اسم طاولة كان هذا الاسم يتضمن حكما عقليا على أساسه أدركت أن هذا الشيء طاولة وليس شيئا آخرا.

عموما يمكن القول أن المعرفة هي ذلك الفعل الذي تستطيع بواسطته الذات أن تسيطر عقليا على موضوع معين بهدف اكتشاف خصائصه المميزة، ولقد اختلف الفلاسفة والعلماء بعد ذلك في تصورهم لفعل المعرفة، ودرجت مؤلفات الفلسفة على تصنيف موضوعات الفلسفة والمعرفة إلى: نظرية الوجود Ontologie ونظرية المعرفة Gnoséologie ومبحث القيم Axiologie

نعود إلى طبيعة العلاقة بين الإبيستيمولوجيا ونظرية المعرفة ويمكن القول بصدد هذه العلاقة:

أولا: الإجابة الأولى تؤول إلى الفلاسفة الناطقين بالإنجليزية وهؤلاء ساووا بين لفظ الإبيستيمولوجيا ونظرية المعرفة في الاستخدام ولم يضعوا أي تفرقة بينهما، يقول كاتب مادة الإبيستيمولوجيا في دائرة المعارف الفلسفية Encyclopedia 1967

of Philosophy"**الإبيستيمولوجيا أو نظرية المعرفة هي ذلك الفرع من فروع الفلسفة الذي ينصرف إلى دراسة طبيعة المعرفة وحدودها، ويهتم بتحديد الأسس والفروض التي تستند إليها ويهدف إلى إبراز القيمة التي يمكن نصبغها عليها"** ونفس المعنى أكد عليه كاتب مادة الإبيستيمولوجيا في دائرة المعارف البريطانية 1961.

لقد اعتبر جون بياجي أن مصطلح إبيستيمولوجيا مرادف في الاستعمال لنظرية المعرفة ويقدم في ذلك أسبابا لهذا الجمع بين الميدانين وخلاصة هذه الأسباب أن العلم سواء نظر إليه من خلال دوره في تقدم المجتمعات أو نظر إليه من خلال دوره في إنماء الفرد وتنميته، فإنه يكتمل بشكل مطرد ودون أن يصل إلى حد الكمال، ولهذه الأسباب فإن أي نظرية في الإبيستيمولوجيا التكوينية لابد أن تتحول في نهاية المطاف إلى نظرية في المعرفة والدليل على ذلك أن أي نظرية في الإبيستيمولوجيا التكوينية تهدف إلى استعراض جميع المراحل التي توصلنا من خلالها إلى ما نعتبره اليوم معرفة علمية، بمعنى أنها تنظر إلى المعرفة من خلال أشكالها السابقة على الشكل العلمي، ولا يمكن أن ننكر احتواء هذه الاشكال على قيمة معرفية معينة، وإلا لما كانت قد أدت إلى التطور الذي انتهت إليه المعرفة مؤخرا.

ثانيا: الاتجاه الذي رفض أن تكون هناك علاقة بين الإبيستيمولوجيا ونظرية المعرفة هم الوضعيون المناطقة، الذين تحول عندهم جنس المعرفة كله إلى نوع واحد فقط هو المعرفة العلمية، فكارناب مثلا لا يعترف بأية نظرية في المعرفة لا تكون تحليلا منطقيا لقضايا العلم، ولا توجد عند أصحاب الاتجاه الثاني أي معرفة غير المعرفة العلمية، وإلى مثل هذا التصور أكد عليه كاتب مادة إبيستيمولوجيا في **دائرة المعارف العالمية الفرنسية** عندما رفض أن تكون هناك علاقة بين الإبيستيمولوجيا وبين الفلسفة عموما.

رغم هذا التعارض والاختلاف يمكن القول أن هناك وشائج القربى المتينة بين الإبيستيمولوجيا والفلسفة بكيفية عامة وبينها وبين نظرية المعرفة بصفة خاصة، فلا فرق بينهما لأن موضوع أية نظرية في المعرفة هو تحليل المعرفة العلمية في مرحلة

من مراحل تطور العلم عبر التاريخ، فكل نظرية في المعرفة هي بالضرورة هي نظرية في المعرفة العلمية، ومعنى هذا أن أي نظرية فلسفية أو ميتافزيقية في المعرفة هي نظرية في المعرفة العلمية طالما كانت الفلسفة أو الميتافيزيقا هي الأم التي أنجبت تاريخيا مختلف العلوم.

إذا كان الاتجاه الثاني لا يعترف بوجود معرفة أخرى غير المعرفة العلمية سواء في الحاضر أو في الماضي، ففي الوقت الذي ينتقدون فيه ميتافيزيقا أرسطو على أساس أنها فارغة من المعنى ينتقدون لنفس السبب كل الفلسفات الميتافزيقية الحديثة والمعاصرة، ويرفضون أن يكون العلم ابن الميتافيزيقا.

هناك إذن اتصال وانفصال بين نظرية المعرفة بمعناها الفلسفي العام، وبين الإبيستيمولوجيا بمعناها الدقيق الخاص، وإذا كان الاتصال هو المظهر البارز على صعيد التحليل الفلسفي المجرد، فإن الواقع التاريخي واقع تطور العلوم قد فرض نوعا من الانفصال بينهما، نوعا من القطيعة الإبيستيمولوجية، ومن نتائج هذه القطيعة أن أصبحت الإبيستيمولوجيا في بداية القرن من اختصاص العلماء بينما بقيت نظرية المعرفة بمشاكلها التقليدية من اختصاص الفلاسفة.

ب-علاقة الإبيستيمولوجيا بالفلسفة الوضعية.

لماذا يكون من الضروري توضيح علاقة الإبيستيمولوجيا بالفلسفة الوضعية؟

لابد في البداية من الإشارة إلى أمرين من أجل تحديد هاته العلاقة:

أولا: إن كتاب أوكسط كونط **"محاضرات في الفلسفة الوضعية"** الذي ظهر سنة 1826 يعتبر أحد المؤلفات الأساسية المبشرة بمبحث الإبيستيمولوجيا كما نعلم.

ثانيا: إذا عدنا إلى كتاب الدكتور محمد وقيدي، ماهي الإبيستيمولوجيا؟ نجد أن تعريف لالاند في كون الإبيستيمولوجيا ليست تأليفا أو استباقا حدسيا للقوانين العلمية على شاكلة الفلسفة الوضعية لم تكن عبارة موفقة، وهذا التعريف حسب الأستاذ وقيدي قد جانب الصواب في تحديد العلاقة بين الإبيستيمولوجيا والفلسفة الوضعية، كما أنه أخطئ في فهم حقيقة الفلسفة الوضعية وعلاقتها بالعلم.

لتوضيح هذه المسألة ننفتح على بعض مقتضيات وشروط تحديد العلاقة بين الفلسفة الوضعية والعلم عند أوكسط كونط، فالعلم عنده هو تلك المعرفة التي بلغت آخر مراحل تطورها وهي المرحلة الوضعية، بعد أن تجاوز العقل الإنساني المرحلة اللاهوتية والميتافزيقية داخل هذا الميدان المحدد أو ذاك من ميادين المعرفة.

ويمكن القول كذلك أن المعارف العلمية التي أنتجتها المرحلة الوضعية هي عبارة عن العلوم الجزئية الخاصة ويصبح كل علم من هذه العلوم مستقلا بنفسه، إذ استطاع أن يحقق تراكما معرفيا، وإذا تمكن من تطبيق المنهج الوضعي في دراسة الظواهر المختلفة، والمعرفة التي لا تصطنع الفلسفة الوضعية لا يعتد بها في المعرفة العلمية بتاتا. وإذا انتقلنا إلى تحديد علاقة الفلسفة الوضعية بالإبيستيمولوجيا فيمكن القول أن هذه العلاقة إنما جاءت من محاولة كونط تجاوز النتائج السلبية التي تمخضت عنها دعوته الفلسفية في ميدان العلوم، ولتقييم النتائج المختلفة لتأثير الروح الوضعية على شتى العلوم في القرن 19 يمكن تصنيفها في خانتين واحدة إيجابية والثانية سلبية.

النتائج الإيجابية: إن التقييم المنظم المتخصص للمعارف قد سمح بنمو أسرع للمعرفة في شتى ميادينها، فالعلوم الجزئية التي أنتجتها المرحلة الوضعية أصبحت ذات موضوع معروف ومعالم محددة بعد أن كانت تعاني من الغموض والعمومية التي تتميز بها المراحل السابقة على المرحلة الوضعية، لهذا فقد نمت وتطورت هذه العلوم بدرجة كبيرة في بداية أمرها.

النتائج السلبية: ترتبت عن حالة التخصص الضيق التي جاء بها العصر الوضعي، ويمكن أن نفسر ذلك بأن حالة الانغلاق التي عاشها أصحاب التخصصات العلمية داخل علومهم جعلتهم مقطوعي الصلة بما يجري داخل التخصصات المجاورة، وهنا لاحظ العلماء في شتى فروع العلم أن علومهم قد وقفت عن التطور أو كادت وعبر كل ذلك عن نفسه في أزمة عامة عرفت بأزمة الأسس في العلوم، ولقد وجد العلماء المخرج من هذه الأزمة في البحث في الأسس التي يقوم عليها العلم موضوع تخصصهم.

هذا البحث قاد إلى إقامة صلات من نوع جديد بين فروع المعرفة الإنسانية، فجذور العلم الجزئي غالبا ما تمتد مع جذور علم آخر، وكان من نتائج هذه الأزمة أن رد العلماء بعض العلوم إلى بعضها الآخر، مثل ما انتهت إليه جهود فريجه وبيانو وراسل في رد الرياضيات إلى المنطق.

يمكن القول أن أكوسط كونط قد توقع النتائج السلبية للدعوة الوضعية في ميدان العلم، لهذا أكد أن الفلسفة الوضعية يجب أن تنهض بمهمة الحفاظ على النتائج الإيجابية للعصر الوضعي دون الوقوع في الخطر الذي يهدد تقدم المعرفة الإنسانية من جراء تقسيم وتجزيئ هذه المعرفة، وسيتضح أن الفلسفة الوضعية في علاقتها بالعلم عند كونط غير مقطوعة الصلة بالتفكير الإبيستيمولوجي، والوظائف التي ألقاها كونط على عاتق الفلسفة الوضعية هي التي حددها المفكرون بما نسميه فلسفة العلوم أو الإبيستيمولوجيا، والفيلسوف الوضعي كما يراه كونط هو نفسه الإبيستيمولوجي.

أليس رهان الفلسفة الوضعية أن تجد في النسق المعرفي الذي يحكم تطوره مبدأ الحتمية التاريخية (قوانين المراحل الثلاث) مجموعة من العلاقات الخارجية والداخلية في نفس الوقت، بمعنى أن تجد أساسا للواقعية وأساسا للمبادئ المنطقية.

يتبع....

المحور الثاني: الإبيستيمولوجيا وفلسفة العلم